مصر منذ تسعين سنة

صحف التاريخ

(٧)

عزمت ان امكث بضعة شهور في بلاد العجائب والغرائب . واراني غير آسف لما احتملهُ من العناء في هذه الغربة وما ابذلهُ من النفقات الكثيرة للوصول الى غرضي ورأيت ان افضل واسطة لمعرفة الحقائق عن مصر والمصريين في الائتلاف معهم وتعوُّد معيشتهم وعاداتهم في عوائدهم مع الصبر والحزم وطول الاناة

فمصر مرآة الزمن العابر وعلى آثارها ومبانيها وجوامعها ومشاهدها نقرأ صحف تاريخها القديم على اختلاف تقلباتهِ واحكامهِ السياسية قرناً فقرناً . فبغداد ودمشق والقسطنطينية وغيرها من مدن الشرق القديمة لم يبقَ منها في الوجود سوى آثار ناقصة غير معروفة . ففي بغداد عاصمة الماديين والفرس لا يجد السائح اثراً لهذه الامم البائدة سوى بعض آثار دارسة وكذلك دمشق لا يجد فيها اثراً لسكانها الاراميين الاقدمين سوى بعض آثار رومانية ويونانية . والقسطنطينية فقدت على اثر الفتح الاسلامي كل آثارها اليونانية ما عدا اثراً واحداً وهو جامع اجيا صوفيا وهذه المدينة تجدد ابنيتها كل عشرين سنة مرةً لكثرة الحرائق التي تحدث فيها يومياً فيتغير شكلها وتتبدل معالمها كلها واما مصر فلا تزال قائمة فيها كل آثار فراعنتها الاقدمين وابنيتهم وهيا كل معبوداتهم ومصنوعاتهم حتى جثثهم اسرة فاسرة . وكذلك آثار من خلفهم من حكام اليونان والرومان والفرس والعرب والاتراك . فاينما جلت في مدنها وقراها تجد اثراً قديماً . وفي اي شوارع القاهرة مررت اقرأ على جدران الجوامع وابنيتها القديمة آثار حكامها السابقين من الامويين والعباسيين والفاطميين والتركمان والسلجوقيين والايوبيين والمماليك . وابنية هذه الآثار والمعالم والجوامع اتبعت فيها الهندسة الاندلسية والصقلية وارى ان هذا الطرز من هندسة الابنية بزنطي الاصل انتقل اولاً من القسطنطينية الى دمشق وبغداد ومنها الى الاندلس على عهد الامويين ثم اتبع في مصر على عهد الخلفاء الفاطميين . ولذلك ترى آثار ابنية الاندلسيين في غرناطة وقرطبة واشبيلية تشابه تمام الشبه هندسة الجوامع والقصور القديمة في القاهرة واكثر من تولى مصر من الحكام السابقين بنى جامعاً او قصراً او اقام سبيلاً او اثراً جيداً من عمرو بن العاص الى

ابن طولون وصلاح الدين و بيبرس الى الحاكم بامر الله والغوري الى امراء المماليك مما يدل على عظمة الاسلام في القرون المتوسطة

ومن الغريب ان جامع عمرو الذي بناهُ فاتح مصر واحد صحابة النبي والاثر الاول الديني للاسلام لم يبق منهُ سوى بعض جدران متهدمة ومجموع خرابات واما غيرهُ من جوامع الامراء والسلاطين فتينة البنيان مشيدة الاركان . وجامع عمرو في بقعة منفردة وبرية خاوية خالية بين القاهرة ومصر القديمة تدعى الفسطاط اي الخيمة لان هذا القائد العظيم نصب خيمتهُ في تلك البقعة فبنيت بعدهُ حولها المدينة الاسلامية الاولى ودعيت الفسطاط وبناء هذا الجامع على الطرز البيزنطي تحيطهُ الاعمدة المرمرية تستند عليها قبة عظيمة . ورأيت داخلهُ محراب الامام وهو اجمل واقدم اثر مقدس للاسلام صنع في سنة ٩٤ هجرية . و يقال في تاريخ الفتح ان حمامة بنت عشها على خيمة عمرو وآوت فيهِ صغارها ولما بدأ ببناء الجامع لم يشأ فاتح مصر وقاهر الروم ان يهدم عش هذه الحمامة و يقلق راحتها فامر ان يبنى الجامع حول الخيمة وتركها آمنة مطمئنة على وكرها واولادها

وزرت بالقرب من باب النصر جامع الخليفة الحاكم بامر الله وهو الآن مجموع اطلال دارسة في فناء ارض مسورة بالجدران العالية فهذا الحاكم لم يكتفِ بلقب الخلافة و بسلطتهِ المطلقة الاستبدادية على كل بلاد الشرق من العراق الى العربية وسورية ومصر بل اراد ان يتشبه بنيرون في ظلمهِ وعتوهِ وبكاليغولا الامبراطور الروماني في كبريائهِ فالاول حرق رومية ليتفرج على خراباتها والثاني ادعى الالوهية وبنى لنفسهِ هيكلاً ليعبد فيهِ وكذلك هذا الحاكم انشأ ديناً خاصاً بهِ وامر الناس بالسجود لهُ بعد ان ملأ البلاد ظلماً وجوراً

— الخماسين —

« الخماسين » وما ادراك ما هي خمسون يوماً تهب فيها الرياح الجنوبية والشرقية المحرقة المخمدة للانفاس المذيبة للاجسام ويصعب جداً على المرء ان يخرج من دارهِ في هذه الايام قبل الساعة الرابعة حينما تهب الرياح الشمالية فتنعش النفوس بنسماتها البحرية . واكثر الناس هنا يقضون ايام « الخماسين » اما تحت الاقبية الارضية التي لا تصلها اشعة الشمس الحارة او في الحمامات . وعلى ذكر الحمامات اقول انها كثيرة في القاهرة مبنية على الشكل البيزنطي وفي وسط كل حمام بركة كبيرة تنصب فيها المياه بشكل يبهج النظر وفوقها قبة عالية متناسبة الشكل مكسوة بزجاج مختلف الالوان وحول صحن الحمّام غرف عديدة للمستحمين في كل منها اجران من الرخام للماء السخن والبارد وهناك مخادع عديدة للغسل

والدلك والتمسيد والنطش . وفي رحبة الحمام اسرَّة ومقاعد للنوم والاستراحة بعد الاستحمام تقدم فيها النارجيلة والقهوة والمشروبات حسب عادة اهل الشرق المائلين الى التنعم والراحة . ومما يجب ذكرهُ ان اكثر هؤلاء المستحمين اصحاء الاجسام لا يخشى من الاختلاط بهم خلافاً للحمامات العمومية عندنا فانهُ يجتمع فيها كثيرون من المرضى والمصدورين . فالمستحمون في الشرق يطلبون التنعم والنظافة واما عندنا فيقصدون الاستشفاء

وعند ما تهب الرياح الشمالية من البحر بعد عصارى النهار يخرج الناس من منازلهم افواجاً افواجاً الى الخلاء والمروج والمتنزهات لاستنشاق النسيم العليل فالنساء المسلمات يذهبن الى المدافن ويجلسن على حجارة القبور واما المسيحيون واليهود رجالاً ونساء فيذهبون الى شبرا ويسرحون تحت ظلال شجر الجميز او يجتمعون زمراً على المروج الخضراء او يجلسون على ضفاف السواقي والبحيرات . والنساء الشرقيات لهن واسطتان للتخلص من السجن وضيق الحجاب بين جدران منازلهن وهما الحمامات وزيارة القبور والرجل مهما كان شديد الغيرة على امرأتهِ ليس في وسعهِ ان يمنعها عن الذهاب الى الحمام او المدافن ولو في الاسبوع مرة واحدة وهذا الامر من حقوقها بحكم العادة

وكل سائح اوربي اتبع طريقتي في المعيشة الشرقية واشترى مثلي جارية يجب ان يضع بازاء عينيهِ ما يلقى من المصاعب . وقعت في اشد الحيرة في كيفية المعاملة مع جاريتي . هل امنعها من الخروج كباقي النساء وحرية الاوربي تأبى هذه المعاملة القاسية . ومن جهة اخرى كيف ادع فتاة ساذجة جاهلة عوائد البلاد غريبة ان تخرج وحدها وتسير في شوارع القاهرة بلا رقيب يحرسها . ثم اي زيّ تتبعهُ في لبسها أزي اوربية وعلى رأسها قبعة وهذا امر ممتهن يوجب السخرية والهزء لانها جارية . ام تلبس الملاءة والبرقع وتسير مع افرنجي جنباً الى جنب ? وكان يجب عليَّ ان احسب عواقب هذه المصاعب

وبينما كانت تصلح شعرها وتلبس ثيابها نزعت العصابة عن رأسها فرأيت على جبينها عند منبت الشعر اثر حرق مستدير على قدر قطعة النقود ومثلهُ على صدرها تحت عنقها وقد نقش عليهِ وشم ازرق يمثل قرص الشمس ولا اعلم هل كان ذلك من ضروب الزينة في بلادها ام سمة النخاس الذي اسرها . وقيل لي ان النخاسين يسمون جواريهم كما يسم الرعاة مواشيهم وغنمهم لتعرف انها ملكهم . وكان ترجماني قد قال لي انهُ يحق لي ان ارد الجارية اذا وجدت فيها عيباً ولكن نفسي الابية تأنف الالتجاء الى هذه الطريقة المعيبة وخصوصاً لان هذه الحروق ولو كانت قبيحة المنظر يمكن ان تستر بعصابة على الجبين او بحلية من الذهب

او بعقد على العنق · وكانت الجارية قد قصت خصلة من شعرها وجعلتهُ غرة على جبينها فلم يعد يرى عيبهُ · وكان انفها مخزوماً منذ الصغر للتحلي بالخزام وكفاها ورجلاها مصبوغة بالحناء على عادة نساء الشرق

∴

وعند المساء سمعت خادمي ابرهيم يناديني وفهمت منهُ ان زائراً اتى لمقابلتي فنزلت ورأيت اليهودي يوسف جالساً في المخدع ينتظرني وهو يدخن فقال لي اتيت لزيارتك وقد بلغني انك اشتريت جارية رغماً عن نصحي لك · واني لا اقصد سوى خيرك · وربما غُشِشتَ في الثمن لان التراجمة يتفقون غالباً مع « الجلابة » على سرقة الاجنبي فقلت لهُ ربما كان ذلك فقال ولا بد ان عبدالله ترجمانك اخذ من النخاس كيساً على سبيل السمسرة · وقلت ما العمل فليس في وسعي رد ما فات · قال اذا شئت ان تبيع الجارية وتتخلص منها حينما ترجع الى بلادك هل تظن ان النخاس يستردها منك بالثمن الذي اشتريتها منهُ قلت ومن قال لك اني سابيعها اذا رجعت الى بلادي · قال لو اتبعت نصيحتي لكنت عقدت زواجك على فتاة قبطية من البنات اللواتي عرضنَ عليك ولكنت اقتصدت كثيراً من المال والنفقات · قلت اني لا اريد ان ارتبط بزواج ديني حسبما طُلب مني · قال ولكنك لا تعدم ايجاد وسائط اخرى وكان يجب ان تثق بي · وفي امكاني ان اسهل لك في زواج تجددهُ متى شئت ولا يكلفك نفقات كثيرة · قلت وكيف ذلك · قال تفتش على رجل فقير صعلوك او خادم صغير من الاقباط او اولاد العرب يرضى بعقد الزواج بالفتاة التي تعجبك على حسابك ثم يطلقها و يتركها لك بدون ان يرى وجهها ويمكنك ان تجدد هذه العقد كلما شئت ابدال المرأة وهذا الزواج المستعار لا يكلفك في كل مرة سوى مال قليل

فطار صوابي من هذا الكلام المغاير لروح العدل والشرائع الانسانية وغلى الدم في عروقي وهممت ان اصفع هذا الرجل الا اني كظمت غيظي واظهرت عدم المبالاة ثم قهقهت ضحكاً فالسائح في الشرق وخصوصاً في مصر يجب ان لا يتعجب من امر ولو كان مدهشاً مستغرباً

ثم اوضح لي يوسف بالتفصيل حقيقة هذه المسألة وان كثيرين من الاوربيين اتبعوها · وان اكثر النساء الفقيرات لا يرون بأساً في الزواج على هذه الطريقة اذ يجدن رجلاً يطعمهنَّ ويكسوهنَّ لكي يتخلصن من نقمة حاكم مصر الذي نفى كل المومسات الى الصعيد الاعلى وحرم على كل امرأة عزباء او ليست ذات بعل ان تسكن وحدها ان لم تكن مملوكة · وعلمت من مصدر ثقة انهُ كان في مصر منذ عشر سنين على اثر خروج الحملة الفرنسوية عدد كثير من

النساء المومسات حتى ان المشايخ علماء الدين قاموا يطلبون من الحكومة ابعادهن وابطال منازل الفجور العمومية لكن الحكومة لم تصغ الى شكواهم لانها تستفيد منهن اموالاً طائلة بما تفرضهُ عليهن من الضرائب . ولكي ترضي العلماء ابعدتهن الى المطرية في ضواحي مصر . فتفاقمت الشرور اكثر من ذي قبل وكان كثيرون من الناس يتركون زوجاتهم واولادهم ويقيمون مع العاهرات في تلك الضاحية فقام جماعة من العلماء الحديثين وعرضوا على الحكومة دفع الضرائب السنوية التي تأخذها من هؤلاء النساء وانهم يتبرعون بها عن طيبة خاطر بشرط ان تطهر مصر منهن فامر الباشا حينئذٍ بنفي كل العواهر الى اسنا في الصعيد الاعلى . واصبحت الآن هذه البلدة طيبة القديمة بؤرة الفجور والفساد ومحطاً للسياح والاجانب عندما يمرون من هناك لزيارة الآثار القديمة وصارت مدينة اسنا كابري ثانية[1] وقد شيدت فيها القصور واقتنى فيها اولئك النساء عبيداً وجواري وحلى ثمينة على حساب السياح الاوربيين

وتأكدت ان صاحبنا يوسف لا يقصد من تكرار زياراته لي وكثرة مشوراته والتظاهر باخلاص الصداقة لي سوى منفعته الخصوصية . فقلت لهُ في اثناء الحديث ان ما دفعتهُ ثمناً للجارية وترتيب البيت وفرشهِ اضعف ماليتي وصرت مضطراً الى اتباع الاقتصاد . فقال لي ليتك وضعت بين يدي الخمسة الاكياس التي دفعتها ثمناً للجارية لكنت في مدة وجيزة ارجعتها لك اربعة اضعافها بتجارة ورق التوت لاني اتاجر بهذا الصنف مع بعض شركاء فنشتري الورق بالجملة من اصحاب الاملاك وهو على الشجر ثم نبيعهُ مجزءاً باثمان غالية للزارعين الذين يربون دود الحرير ولكن يلزمنا رأس مال ندفعهُ نقداً ثمناً للورق . والنقود في مصر قليلة جداً حتى ان المتوسط المعتاد للفائدة القانونية ٢٤ في المائة ولكننا في تجارتنا هذه نربح في المائة ١٠٠ او ١٥٠ . ولما لم يأتِ مني جواباً قال لي . والآن عندي لك نصيحة اخيرة لا اتصدقها سوى غيرك وهي ان لا تدع ترجمانك عبد الله يكلم الجارية او يأتلف معها ولا تجعل له سبيلاً للاجتماع بها لما بينهما من وحدة الجنسية والدين فربما افسد اخلاقها الساذجة او شوش افكارها وجعلها تنفر منك وربما فرت من عندك يوماً ما والتجأت الى سيد آخر يحميها من رجل اجنبي

فهذا الكلام جعل في قلبي قلقاً وهماً ورأيت شيئاً من الصواب في نصيحتهِ هذه ولو لم يقصد بها سوى النكاية بترجماني لكوني اشتريت الجارية بواسطتهِ من غير ان استشيرهُ .

---

(١) كابري مدينة في ايطاليا اشتهرت منذ القدم بالفساد والفجور ولم تزل الى الآن مجمعاً لفاسدي الاخلاق والآداب تؤمها العواهر من جميع البلاد وهي محط رحال السياح من جميع انحاء اوربا وكلمة كابري في اللغات اضحت من مترادفات الفجور والفساد

وحقيقة الامر اذا كان يصعب على الشرقي المحافظة على زوجته فكم بالاحرى يصعب عليَّ وانا اجنبي ان احافظ على فتاة غريبة عني جنساً وديناً ولغة واخلاقاً . والى الآن لا اعلم شيئاً من امرها سوى اسمها . هل اقتني عبداً خصياً (اغا) يحافظ عليها ويرافقها في خروجها ودخولها او هل اطلق لها الحرية والاستقلال في العمل كصاحبة رجل فرنسوي حرٍّ . ان يوسف اليهودي هذا يحذرني من ترجماني ولكن الفطنة تقضي عليَّ ان احذرهما كليهما معاً

وكان عبد الله قد تركني في الصباح وذهب الى السويس ليستقبل بعض الانكليز القادمين من الهند فعزمت عند رجوعه ان اصرفهُ من خدمتي اقتصاداً لمرتبهِ وفكرت في ان بُعدهُ عني يضطرني للاهتمام بدرس اللغة العربية او التقاط بعض عبارات ضرورية من الجارية تكفي لتبادل الكلام بيننا . قال اللورد بيرون ان افضل واسطة لمن يريد ان يتكلم لغةً امرأةٌ يعيش معها منفرداً ولا يعتمد الاَّ على بعض كتب ابتدائية . وحقيقةً ان التمرن على الكلام افضل من الانكباب على المعجمات والتراجم . ولما انصرف يوسف من عندي صعدت الى غرفتي فرأيت زينب واقفة امام النافذة المطلة على الشارع تطلع يميناً ويساراً من وراء « المشربية » فاقتربت منها وهي لا تشعر ورأيتها تحدق بنظرها الى بيت مجاور وكان هناك ضابطان تركيان جالسان عند مدخل الدار يدخنان فادركت ان وراء ذلك خطراً ادبيًّا يجب تلافيهِ ولما اردت ان افهمها بطريقة لطيفة ردية ان تبتعد عن النافذة امتنع عليَّ النطق بكلمة عربية تعبر عن رغبتي . وفكرت ان كلمة « طيب » التي لا اعرف سواها تؤدي عكس المراد فخطرت على بالي اداة النفي « لا » فوقفت بازاء الجارية ووضعت كفي على جبهتي وقلت لها « لا لا » فحدقت بي تحديقاً يقرب الى البلاهة ورأيت انها لم تفهم قصدي فقبضت على يدها برفقٍ وقدتها الى المقعد واومأت اليها بالجلوس ثم وضعت يدي على فمي مشيراً اليها ان قد حان وقت الاكل . وبعد قليل ناداني طباخي مصطفى فخرجت ورأيتهُ حاملاً مائدة مستديرة وعليها اطباق الاكل فقلت لهُ « بونو بونو » اي حسناً فعلت واومأت اليهِ بالانتظار ثم دخلت وانهرت زينب اشارة ان تضع النقاب على رأسها ففعلت ودخل مصطفى ووضع السفرة وخرج واغلق الباب

وكان بين اصناف الاكل دجاجة مطبوخة بالارز وقلقاس ورؤس بصل كبيرة عائمة في مرق متبل بالخردل فوضعت كرسيين حول السفرة وجلست على احداها واومأت اليها بالجلوس فاظهرت الاباء وحولت رأسها الى النافذة فظننت انها لا تتمكن من الاكل وهي على كرسي عالٍ والسفرة واطئة فنهضت واحضرت وسادة ووضعتها بدلاً من الكرسي واشرت

اليها بعبوس فزادت اباء ونفوراً فقلت لها بلطف هل تريدين ياعزيزتي المسكينة ان تموتي جوعاً

قلت ذلك وانا عالم انها لم تفهم كلمة واحدة ولكني عبرت عن عواطفي نحوها . . . واعيتني ما العمل كيف اتفاهم معها فجعلت اومئ اليها ان تجلس وتأكل مردداً لفظة « طيب طيب » وكل ذلك لم يفد شيئاً لانها ظلت محولة وجهها عني واخيراً بعد الالحاح قالت لي « ما فيش » فلم افهم قصدها فظننت بعد التفكر ان الفتاة جاوية وربما كانت على دين الهنود البراهمة وهؤلاء يحرمون ذبح الحيوانات ويمتنعون عن اكل لحومها ولا يقتاتون بسوى الاغذية النباتية . ولكي اتحقق هذا الامر اخذت قطعة من الخبز وقبلتها ووضعتها على رأسي باحترام مردداً اسم « براهما » اله الهنود . الا انهُ ظهر لي انها لم تفهم شيئاً من هذه الرواية الايمائية (بالتوميم) ونقمت في سري على النخاس عبد الكريم لانهُ باعني طيراً جبلاً ولم يقل لي عنها بتاتاً . فقدمت لها قطعة الخبز واشرت اليها ان تأكلها فرفعت يدها علامة الاباء وقالت « ما فيش » وخطر على بالي ما جرى في باريس منذ بضع سنين فان احد اصحاب المراقص احضر من الهند بعض الراقصات وكن يمتنعن عن الاكل في المطاعم العمومية ويحضرن طعامهن بايديهن من الاغذية النباتية . فعزمت ان اخرج مع الجارية بعد الغداء الى الفندق لاستطلع كنه امرها بواسطة احد التراجمة وخطر على بالي ان اذهب اولاً الى موطني جان ولكن رأيت من عدم اللياقة والادب ان ادخلها الى حانة يجتمع فيها كثيرون من العامة . واخيراً فكرت في مدام بونوم صاحبة المكتبة الفرنسوية واذ ذاك سُمع من الشارع قرع اجراس صغيرة فنهضت زينب واطلت من النافذة فنهضت على اثرها ورأيت غلاماً يقود قطيعاً صغيراً من الماعز الحلوبة في اعناق بعضها الجلاجل فأومأت اليَّ باصبعها وصرخت « أيوا أيوا » فعلمت انها تريد شيئاً من الحليب . فناديت الغلام وامرت مصطفى ان يملأ اناءً من الحليب فاظهرت الجارية السرور والارتياح وقالت للغلام « تعال بكرا » ففهمت انها تدعوهُ للمجيء في الغد ايضاً ثم مدّ هذا يدهُ نحوي وصرخ « الفلوس الفلوس » فنقدهُ الطباخ ثمن الحليب ومد يدهُ ثانية وقال « بقشيش يا سيدي » فقلت لهُ مقلداً الجارية « تعال بكرا » . فتعلمت وقتئذٍ كلمتين جديدتين وهما « الفلوس وتعال بكرا » وكانتا الامثولة الاولى من درس اللغة العربية

ثم اومأت اليها ان تتشح بالملاءة وتخرج معي فاظهرت الاباء والنفور وقالت « انا عاوزة حبرة » فعلمت ان هذه الجارية تستنكف وهي مملوكة رجل افرنجي ان تظهر في الشوارع بزي النساء الفلاحات من العامة فاظهرت لها في دوري النفور والاباء وقلت لها « مافيش »

ديمتري نقولا